

## الذاكرة و الشهادة في كتابة تاريخ الثورة الجزائرية 1954-1962

الدكتور نورالدين نثيو - جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة .

### الثورة التحريرية في التاريخ الراهن

تقع الثورة الجزائرية على الإستعمار الفرنسي في صلب التاريخ الراهن<sup>1</sup> في مغزاه الدال على إمكانية مجابلة الحدث من بدايته وفي سياقها إلى آخر مدلولاته و مآلاته. فالثورة التحريرية(1954-1962) التي وقعت في الجزائر هي ثورة وطنية بكافة المعاني و ليس فقط بمعنى ما، لأن ميادينها و مواقعها طالت كل ربوع الجزائر، بما في ذلك بعض المدن الفرنسية التي شهدت قبل ذلك ميلاد الحركة الوطنية الجزائرية في نشأتها الأولى و تطوراتها اللاحقة<sup>2</sup>. فالتاريخ الراهن هو تاريخ معاصر في لحظته الحاضرة التي يتفاعل معها الشاهد و المؤرخ في سياق زمني واحد يوفر إمكانية الوقوف على مدى صِدْقِيَّة الشهادة و رواية الحدث من الذاكرة.

إن الشهادة كمصدر للتاريخ الشفهي تعبر عن لحظة زمنية تتماهى فيها الواقعة التاريخية مع لحظة البوح بها و في التّو. فصَلَة الشهادة التاريخية هي مع التاريخ ذاته و مع الشاهد أيضا، و من هنا خصوصية التاريخ الراهن الذي صارت تصنعه المعلومة الفورية و الحديث التلقائي و الاستجواب و الخبر الذي تقدمه الوسائط المختلفة و المتنوعة في الأوعية و في طريقة التقدم. هذا التّعدّد و التّنوع هو الذي صار يبحث على عدم الرّكون المطلق إلى المعلومة مهما كان مصدرها و إلى التّوجّس و الرّيبة من التصريحات و الشهادات و الأحاديث. و التاريخ من هذه الناحية لا يكتب بلغة واحدة و لا برأي واحد و لا بشهادة واحدة، فقد زاد الوعي بالحقيقة إلى حد لم يعد حديث "الأحاد" يكفي لإضفاء الصدق و المصادقية على الرواية و الشهادة و الحديث من الذاكرة، و لعلّ

---

<sup>1</sup>مدرسة الزمن الراهن Histoire du temps présent هي منهج و رؤية في التعامل مع تاريخ العالم المعاصر، دعا إليها المؤرخ الفرنسي فرانسوا بيداريدا François Bédarida (1926-2001) أستاذ التاريخ المعاصر. قوام تاريخ الزمن الراهن أو الحاضر، أن الباحث / المؤرخ يمكن أن يقتحم الحدث و يعالجه في لحظته و في تلقائية الفورية باعتباره معاصرا له، خلافا لما كان يعتقد في المنهج التاريخي من ضرورة مرور الحدث أو الواقعة إلى التاريخ الماضي حتى يتسنى له القدرة العلمية و المعرفية دراسة الحدث و إلحاقه بالتاريخ و فهمه في ذلك السياق، يقول بيداريدا: "ممارسة البحث التاريخي وفق نظرية تاريخ الزمن الراهن هي أن تعتبر هذا الزمن تجربة معاشة، و العودة بالتالي إلى التعريف السليم لتاريخ العالم المعاصر (عندما يعني التاريخ الذي نجياه و نعيشه و نجايه فعلا)، أي التجربة في لحظتها المعاصرة. و النظرية تعني في حقيقة الأمر مجالاً متحركاً، ينطوي على تحقيقات و مراحل مرنة إلى حد ما و مقاربات متنوعة و تفكيكات متلاحقة". دعوة بيداريدا إلى بحث المؤرخ اللحظة المعاصرة و اقتحامها يعني من جملة ما يعني عدم ترك الآخر الذي سيأتي من بعد ليحتكر الفهم السليم للحدث، المؤرخ في التاريخ الحاضر له أيضا دوره، و يكفيه علمية و مصادقية أنه عاصر الحدث بكل تجلياته عبر النص و الصورة و الصوت، الأمر الذي يجعله لصقا بالتاريخ و متفاعلا معه. François Bédarida, l'histoire du temps présent, revue science humaines, (n° 18, sept-oct. 1997), p.31

<sup>2</sup> حول صلة باريس بتاريخ ميلاد و تطور الحركة الوطنية الجزائرية يمكن العودة إلى كل الكتب التي تناولت نشأة النزعة الوطنية الجزائرية إلى الإستقلال عام 1962. و أهم كتاب ركّز على بلاد المهجر و النزعة الوطنية: Jacques Simon, l'immigration algérienne en France, des origines à l'indépendance, éd. Paris Méditerranée, 2000.

تطوّر العلوم الإنسانية و الاجتماعية التي أضحت روافد لدراسة و بحث التاريخ هي التي أمست توفر أدوات و طرق و آليات فحص و نقد و نقض المادة التاريخية و إجراء عليها كافة المعالجة و التحليل من أجل تبين معقوليتها و مدى إمكانية وجودها من عدمه.

ننطلق في بحث موضوع الثورة الجزائرية في شهادة و ذاكرة من صنعها أو عاصروها، من أن الثورة ذاتها حدث تاريخي بالمعنى السليم و بالحرف الكبير لكلمة تاريخ العالم الراهن. فقد تلازم فعل المستعمر الفرنسي مع رد فعل المستعمر الجزائري في لحظة زمنية مكثفة بالدلالات و المعاني السياسية الجديدة في عالم العلاقات الدولية و التاريخ العام. فقد أسفرت الثورة التحريرية عن استمرار التاريخ نحو الرّنو إلى مزيد من الحرية و العدالة و المساواة كما جاء في موثيق و إعلانات الثورات التاريخية العظيمة في العالم، و من ثم وضع حد للاستعمار و بداية منعطف جديد لتاريخ تصفية الإستعمار. هذا الوضع التاريخي الراهن للثورة الجزائرية، أو حرب الجزائر حسب التعبير الفرنسي، يكشف أيضا عن حالة صراع بين الإسلام و الغرب في صلب الإشكالية الحضارية الكبرى لتاريخ العالم الحديث و المعاصر.

جرت حرب الجزائر، حسب الوصف الفرنسي، بين طرف جزائري متخلف حضاريا، لكن نخبته كسبت وعيا سياسيا و ثقافيا من خلال احتكاكه بالحوار و الصراع مع الوجود الفرنسي في الجزائر و في فرنسا و بين سلطة استعمارية عبّرت عن تطوّر فاسد لتاريخ فرنسا في الجزائر و في العالم<sup>1</sup>. و قد استمر هذا الصراع بين الطرفين إلى ما بعد الإستعمار و إلى ما يعرف بحرب الذاكرات<sup>2</sup> حيث سعى كل طرف إلى محاولة استعادة الحدث التاريخي و إدراجه في الذاكرة الجماعية للأمة. و في لحظة ما بعد الكولونيالية، نشطت ذاكرة المستضعفين سابقا واستطاعت أن تثبت أن الأهالي المسلمين الجزائريين كان لديهم ما يقولون و بإمكانهم أخذ الكلمة و تقديم مطالبهم و إشغاعها بحجيات معقولة.

الثورة الجزائرية الكبرى (1954-1962) هي حدث نموذجي، اندرج في خط تاريخ العالم الحديث و المعاصر فضلا على الراهن، تعاون على صنعه الفرنسيون و الجزائريون، كما تروي ذلك شهادات و روايات من عاصروها و كتبوا عنها في حينها<sup>3</sup> أو المذكرات التي جاءت في أعقاب الإستقلال، خاصة بعد الأحداث المأساوية التي شاهدها الجزائر حقبة تسعينيات القرن الماضي. و قد توزعت هذه المذكرات بين الذين سجلوها باللغة الفرنسية من الجانب الفرنسي من عسكريين و سياسيين و كتاب صحافيين على اختلاف توجهاتهم الفكرية و السياسية، و بين من سجلوها من الجزائريين باللغة العربية<sup>4</sup> و من رووها باللغة الفرنسية<sup>1</sup> و إذا كان

---

<sup>1</sup> أنظر مثلا الحوار الذي أجراه الكاتب المحامي فيليب كرم فليسي مع المناضل و المحامي الكبير جاك فرجيس الذي يروي حياته أثناء حرب التحرير الجزائرية و الخراطه العضوي في قضية الجزائر كقضية إنسانية، مناهضة للاستعمار Jacques Vergès l'anticolonialiste, entretiens avec Philippe Karim Felissi, Chihab Editions, Alger, 2005.

<sup>2</sup> Benjamin Stora, la guerre des mémoires, la France face à son passé colonial, entretiens avec Thierry Leclère, Editions de l'aube.

<sup>3</sup> Yves Courrière, la guerre d'Algérie, éd. Laffont, Paris, 1990 ; Frantz Fanon, l'an V de la révolution algérienne, éd. Maspero, Paris, 1959.

<sup>4</sup> أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، 4 أجزاء، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.

للثورة ما بعدها، و هو موجود فعلا، هو أن الذي استطاع أن يستوعب الحدث في الذاكرة و التاريخ هو الذي تمكن من تمثين مقومات الأمة و الدولة كقاعدة محصنة للذات الوطنية من أهوال السياسة و الحكم و من صُروف الأزمات الاجتماعية و الاقتصادية.

## سرد التاريخ من الذاكرة

يكتب التاريخ في جانب منه من الذاكرة.. و كلما نشطت الذاكرة و أبدت القدرة على التذكر، كلما كانت الكتابة التاريخية أفضل و أضفى ذلك مصداقية و جدية على التاريخ ذاته. عندما نتحدث عن التاريخ، نتحدث بالضرورة عن الذاكرة، أي رواية و سرد الأحداث و عرض المواقف التي لا زالت عالقة بذاكرة الشاهد.

ما يساعد على تعزيز الذاكرة من النسيان هو حفظ و صيانة الأرشيف. تنظيم مراكز الأرشيف و المحفوظات و جمع الوثائق فيها يتمشى فوراً مع إمكانية التعويل على الذاكرة و رواية وقائع الماضي. والأرشيف في عصر الثورة الجزائرية و ما بعدها صار ثلاثي الأوعية: صورة، صوت و نص. أرشيف منظم يساعد فعلا الذاكرة على التذكر و يحفز على كشف ما علق بالذاكرة من أحداث الثورة و تتذكر البعض الآخر و يخلع على القصة مصداقيتها و شرطها الموضوعي. حول صلة الذاكرة بكتابة التاريخ في الحالة الجزائرية يمكن أن نورد ما جاء في التوضيح الذي استهل به السيد أحمد طالب الإبراهيمي، الذي عكف منذ سنوات على كتابة مذكراته، التي صدرت منها إلى حد الآن ثلاثة أجزاء، يقول: "عندما عزمت على كتابة مذكراتي، رجعت إلى أرشيفي الشخصي، و بدأت أحرص كل الوثائق و الملاحظات التي دأبت على تدوينها منذ أربعة عقود على الأقل، و قد كنت حريصا كل الحرص على إصدار الجزء الأول في آن واحد باللغتين العربية و الفرنسية تعميما للفائدة. و لكي وجدت أن الوثائق و المراجع المتوفرة حول الفترة الزمنية الممتدة من تاريخ ميلادي حتى سنة 1965 مكتوبة في جلها باللغة الفرنسية، و أنها تتعرض إلى مواقف رجال جمعني بهم القدر في مرحلة معينة و لا يزالون على قيد الحياة، بمعنى أن الشهادة لو نشرت بعدهم لفقدت كل قيمة تاريخية و ضعفت مصداقيتها و تساءل الناس لماذا الآن و ليس قبل اليوم؟ و لهذا كتبت هذا الجزء (الجزء الأول) بالفرنسية و دفعت به إلى المطبعة كسبا للوقت"<sup>2</sup>.

في الفقرة الأخيرة من شهادة الوزير السابق ما يشي إلى أشياء عديدة في مسألة كتابة المذكرة، عندما يضع صاحبها في الحسبان، المصداقية و أن تأتي الرواية على ما وقع فعلا. فهناك جزء كبير من الأرشيف و الوثائق كُتِب باللغة الفرنسية، و أن هناك من يعينهم تاريخ الفترة التي يتحدث عنها الكاتب، فضلا على الوقت الذي يجب أن تكتب فيه المذكرة قبل أن يعدمها التاريخ. حقيقة عدد وافر من المذكرات صدرت في وقت لم تعد تجد و فقدت صلتها بزخم الحياة و لم تؤثر في مجرى التاريخ، و كأن الذين أساؤوا إلى الجزائر زمن الإستقلال و تورطوا في الحرب الأهلية التي تلت عملية وقف المسار الانتخابي، 1992 و من ثم وأد

<sup>1</sup> سوف نعرض لاحقا لمجموعة منها.

<sup>2</sup> أحمد طالب الإبراهيمي، مذكرات جزائري، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006، ص.7.

الديمقراطية في أول ظهور لها في الجزائر، جُرِّدوا من حق الكلام، و إن فعلوا يكاد لا يصدقهم أحد لأن مذكراتهم تأتي فقط للتبرير و التَّسويغ و تطهير الذات من آثام السياسة الفاسدة<sup>1</sup>.

إشكالية كتابة تاريخ الوجود الفرنسي في الجزائر تجد تعبيرها في الصعوبة التي تعترى الجزائريين في كتابة تاريخهم لأن لحظة ما بعد الإستعمار وفرت المجال أكثر لكتابة الفرنسيين لتاريخهم وتاريخ الجزائر أيضا، بينما لم يواكب الجزائريون السيل المنهمر من الكتابات الفرنسية حقبة الإستعمار و الثورة الجزائرية. فقد بقيت " مراحل كاملة من تاريخ الثورة الجزائرية مغمورة و باقية في الظل، على ما يرى المناضل السياسي عبد الحميد مهري، و ذلك راجع إلى عدة عوامل. العامل الأول يكمن بالطبع في ضرورة السرية الصارمة التي فرضتها ظروف الكفاح ضد النظام الإستعماري على الحركة الوطنية الثورية. و هناك عدّة عوامل أخرى أتت، قبل وبعد الإستقلال، لتضاف إلى الأسباب الأولى. إن تداخل هذه العوامل فيما بينها قد حدد لدى جيل حركة التحرير الوطني نظرة ضيقة للتاريخ، و لا تزال إلى حد الآن (2010) لدى الكثير من أبطال تلك المرحلة. ولم يتغير تبوؤ بلادنا للإستقلال، في الظروف الصعبة و المعقدة التي تعرفها هذه النظرة للتاريخ، بل و الأخطر من ذلك، على مقتضيات الحرب التحريرية، زاد التلاعب السياسي عن طريق المبالغة و التهميش المعمم أو عن طريق الطمس الكلي. أكيد أن النقص في المعلومات و ندرة الشهادات و التوثيق في هذا المجال من العوامل التي ساعدت على انتشار هذه الممارسات"<sup>2</sup>.

### الثورة الجزائرية أو الحديث الصعب عنها

صعوبة الحديث عن ثورة التحرير الجزائرية أن رواية الحدث لا تتم بالوفاء التاريخي الذي يحفظ ذاكرة الأمة و يرصد لها إنجازاتها التاريخية زمن الحرب كما زمن السلم. و نقصد أن ربط حزب جبهة التحرير الوطني لما بعد الإستقلال بجبهة التحرير الوطني زمن الثورة أعاق بشكل مرهق جدّا الذاكرة الوطنية من تواصل الثورة مع الأجيال الجزائرية المتلاحقة. فقد كان حرص السلطة على تمهيي الحزب مع الدولة و العناد على ربط تاريخ الثورة بواقع حياة الجزائريين في الوقت الراهن، وقعه الضّار على التاريخ المستقل للثورة التحريرية و أنها تاريخ الأمة غير قابل للاحتكار و الملكية كما هي دائما مقوّمات الوطن والأمة و الدولة . التاريخ المستقل للثورة التحريرية يعني بالدرجة الأولى الطرفين الفرنسي و الجزائري زمن الإستعمار، كما يعني بالأساس زمن ما بعد الإستقلال

---

<sup>1</sup> نذكر على سبيل المثال، لا الحصر، بعض المذكرات التي صدرت من أطراف شاركت في الانقلاب الذي حدث بعد الانتخابات التشريعية عام 1991، و راح أصحابها يتحاملون على الحركات الإسلامية، من دون أن يتحمّلوا وزر و رزء الانقلاب على الوضع الذي آلت إليه الجزائر و الآثار الوخيمة في حياة الجزائريين: علي كافي، مذكرات، من المناضل السياسي إلى القائد العسكري، دار القصبية للنشر، الجزائر، 1999، Khaled Nezzar mémoires du général, Chihab Editions, Alger, 1999 ; Ali Haroun, le rempart, Casbah Editions, Alger, 2013.

<sup>2</sup> هذا ما جاء في التقديم الذي مهد به المرجوم عبد الحميد مهري كتاب المناضل عيسى كشيدة "مهندسو الثورة". و هي شهادة من أهلها التي تضع البنان على الجرح النازف وتشير إلى أزمة استعصت على الوعي الجزائري بحقيقة الثورة الجزائرية. في هذا التقديم يعيد السيد عبد الحميد مهري النظر في الأطروحة التي سادت إلى الوقت الحاضر بأن الخلاف الحاد و الخطير الذي فتّ في عضد حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية، و أفضى إلى حالة انشقاق بين المصاليين و المركزيين دفع بمجموعة من الناشطين من ذات الحزب إلى التمرد و إعلان الثورة كأفضل طريق إلى التحرير و الإستقلال. و على خلاف ذلك يذهب عبد الحميد مهري إلى أن بداية التفكير و الإعداد للثورة كان في سنة 1952، عندما عمد الناشطون السابقون في المنظمة الخاصة إلى ضرورة إعادة هيكله و تنظيم الحركة الوطنية حول فكرة الثورة من قبل التنظيم السابق الذي حلّته الإدارة الإستعمارية. من تلك اللحظة بدأ فعلا السعي إلى البحث عن وسائل الكفاح المسلح و الثوري. أنظر كتاب، عيسى كشيدة، مهندسو الثورة . شهادة ، تقديم عبد الحميد مهري، ترجمة موسى أشرشور و زينب قبي، منشورات الشهاب، 2010، ص. 8

الدولتين في مدلولهما المجرد الذي يعني كل الأحزاب و الأفراد و التيارات الفاعلة في حياة الأمة المعاصرة سواء أكان ذلك في فرنسا أو في الجزائر.

طالت فترة حكم حزب جبهة التحرير الوطني و طالت معه أيضا فترة احتكاره و استغلاله للرصيد التاريخي للثورة التحريرية ، يوظفها في التستر على إخفاقاته و تعثره في إنجاز تنمية وطنية شاملة تخلو من الاحتكار و الاستحواذ بما في ذلك الاستحواذ على تاريخ الثورة ذاتها. تماهي الحزب مع الدولة هو الذي غيّب إمكانية استقلال التاريخ بذاته ليعبر عن كافة من صنعوه و من شاهدوا ما جرى و ما حدث و من كانت لهم أيضا مواقف أخرى و وجود مختلف مهمما كانت مراكزهم الاجتماعية و انتماءاتهم العائلية و ثقافتهم السياسية. واقع الحال الذي تعاملت معه السلطة في الجزائر هو أن روزنامة الاحتفالات و الأعياد التاريخية الوطنية كلها تصب في الدعاية للدولة التي تتوكأ على الصعيد السياسي و الإيديولوجي و الإعلامي على تاريخ الثورة التحريرية. و من هذه الناحية، يمكن أن نجزم بأن هذا الربط بين الدولة/ السلطة و جبهة التحرير<sup>1</sup> يمثل العائق الأكبر لظهور الديمقراطية في الجزائر.

كانت الثورة التحريرية، كما يقال و كما كترست في التداول العام ثورة شعبية، البطل الحقيقي فيها هو الشعب، كتلة بشرية ثارت على الوضع الاستعماري، و سعت بكل ما تملك من أجل نيل الاستقلال. لكن الثوري، كما حاول أن يعرفه فرانز فانون، و هو المارتينيكي الذي جاء ليعايش الثورة الجزائرية عن كثب، بأنه ذلك الفرد الذي أدرك أنه لا يملك ما يخشى عليه عندما ينخرط في الثورة، و أنه قد يستفيد من نجاحها، و لا يضيّع أي شي في حالة فشلها، لأنه أصلا في عداد المعدومين، أو "معدوب الأرض"<sup>2</sup>، كما عَنَوْن به فانون أحد كتبه. هذه الحقيقة لازمت الفئات الشعبية المعدومة لحظة الثورة و سيورتها إلى الاستقلال. لكن لحظة ما بعد الكولونيالية تتطلب قدرة من الوعي و قوة الذاكرة و حيويتها لاستعادة المشاهد و الصور و المواقف، أي كل ما يكشف عن ذات عارفة لما يناط بها من إعادة صنع تاريخ الثورة التي تتم هذه المرة بمقتضيات غير السلاح و الخطاب الثوري. لحظة ما بعد الكولونيالية لا تتعلق بتحرير الوطن بقدر ما تتعلق هذه المرة، بالوعي الشديد الذي يجري بها الحديث و سرد رواية الثورة و تاريخها و نطاقها المكاني.

الحديث عن الأحداث التي جرت في الجزائر و في فرنسا ما بين 1954-1962 و الأجواء التي خيّم عليها و كذلك السياق التاريخي الذي رافقها هو حديث صعب لأنه يتطلب ليس فقط القيام بعملية تفكيك كل البناء الإيديولوجي و السياسي الذي

---

<sup>1</sup> بعد أحداث أكتوبر 1988، التي أفضت إلى انفتاح الوضع العام في الجزائر على بداية التعددية، ظهر في هذا السياق أيضا توجه يرمي إلى فصح عرى السلطة عن جبهة التحرير الوطني التي صنعت الثورة، و أدى فعلا إلى تنامي هذا التوجه إلى غاية تنظيم أول انتخابات تشريعية تعددية نهاية عام 1991، التي شهدت تراجعاً واضحاً لحزب جبهة التحرير الوطني أمام التيار الإسلامي التيار السياسي الجديد على الساحة السياسية. أعطى هذا الفوز الساحق للإسلاميين مؤشراً قوياً للسلطة لكي تعيد النظر في مسألة جبهة التحرير الوطني لكي تبقى الفاعل الوحيد في ساحة العمل السياسي و الانتخابي و تجنّب أي منافسة حقيقية له. فهو حزب الدولة أو السلطة و السلطة يجب أن تبقى. و بمعنى آخر يفيد نفس المعنى، ترتيب و تهيئة الوضع السياسي العام بحيث يواصل حزب السلطة سلطة الحزب كأفضل آلية لاستمرار دولة الحزب أو حزب الدولة. حول الأزمة التي ولجتها الجزائر بسبب إخفاقاتها في تجربتها الديمقراطية مع مطلع تسعينيات القرن الماضي، يمكن العودة إلى كتاب بن كتاب بنجم سطورا، Benjamin Stora، *l'Algérie en 1995 , la guerre, l'histoire la politique*, éd. Michalon, Paris, 1995.

<sup>2</sup> Frantz Fanon, *les damnés de la terre*, Gallimard, Paris, 1991.

شُيّد من الطرفين الفرنسي و الجزائري بل تجريد تاريخ ثورة التحرير من الأساطير<sup>1</sup> و الخرافات و الأفكار المسبقة و ما ساد من أخطاء شائعة التي حامت حولها. نذكر بعض الأمور التي تحتاج إلى إعادة توضيح معقول :

هل الحديث يجري عن ثورة أو حرب، أم عن أحداث داخلية، كما يراها الطرف الفرنسي، أم هي مقاومة مسلحة و سياسية ضد الإستعمار الفرنسي، كما كانت تراها جبهة التحرير الوطني، التنظيم الذي فجر الثورة في يوم الفاتح من نوفمبر عام 1954. فقد عمدت جبهة التحرير الوطني الفصيل المنحدر من حزب الشعب الجزائري - حركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية إلى الإعلان عن الثورة التحريرية ضد الإستعمار الفرنسي بعد كفاح سياسي طويل ومزير إلى حد الملل و فقدان أمل الإصلاح من الطرف الفرنسي، و بعد أن دخلت الحركة الوطنية الجزائرية في كافة أطرافها و تعبيراتها إلى مأزق تاريخي و حضاري، احتقن بشكل خطير سنة 1953، و صار يبحث عن متنفس له في ثورة تتجاوز حالة الاحتقان الوطني المحلي و تتخطى الوضع الإستعماري الفرنسي و الدولي . هذا جانب، أما الجانب الآخر من الحديث الصعب في الحالة الجزائرية و الفرنسية خلال حقبة الثورة هو عدم وصف فرنسا لما كان يجري في ذلك الوقت بأنه حرب حتى لا يظهر الوضع و كأنه حرباً أهلية بين سكان يخضعون للدولة الفرنسية في إقليم ما وراء البحر بسطت عليه سيادتها منذ 1830، و من ثم يجب أن تتحمّل نتائج الحرب في الآن<sup>2</sup> و المال<sup>3</sup>.

---

<sup>1</sup> من الكتب المهمة التي تناولت حدث الثورة و جبهة التحرير الوطني كتاب المناضل و المؤرخ الجزائري محمد حربي. فقد كان من الأوائل الذين تنبهوا لما يمكن أن يرافق رواية الثورة و تقدم الشهادات عنها من أساطير و أفكار مسبقة و أوام. جاء كتابه الثاني حول الثورة التحريرية تحت عنوان: جبهة التحرير الوطني، سراب و واقع، ملفتا فيه إلى حقائق لم تذكر، و لم تكن من معهود الجزائر طوال استقلالها في ظل الحزب الواحد إلى غاية التسعينيات. محمد حربي مثقف جزائري و مناضل سياسي زمن الثورة و معارض للحكم زمن الإستقلال، يساري، يكتب و يبحث في تاريخ الحركة الوطنية و الثورة التحريرية باللغة الفرنسية. و يتموقع من حيث البحث و التفكير في قضايا الجزائر ما بين الضفتين الفرنسية و الجزائرية بحيث لا يتعد كثيرا عن المجال الفرنسي و لا يقترب كثيرا إلى المجال الذي أختاره حزب جبهة التحرير الوطني للجزائريين: مواصلة الحرب على الإستعمار الفرنسي و لو على سبيل الافتراض و الوهم. (Mohamed Harbi, le FLN mirage et réalité, les origines à la prise du pouvoir (1945-1962), éd. Jeune Afrique, Paris, 1980.

<sup>2</sup> بالنسبة للطرف الجزائري هناك تصميم حقيقي على خوض ثورة تحريرية بالكفاح المسلح و النضال السياسي إلى تحقيق النصر باستقلال الوطن الجزائري مهما كان الإطار الذي يتم فيه، و الشاهد على ذلك ما جاء في وثيقة بيان أول نوفمبر 1954. الدفع بالثورة إلى الشعب، يحتضنها و يخوض غمارها هي أفضل وسائل نجاح الثورة. و على خلاف ذلك، كانت السلطة الإستعمارية ترى أن ما يجري في الجزائر هو مجرد عمليات إرهابية يرتكبها إرهابيون، و هي أحداث داخلية تحتاج إلى إخماد بالقضاء على الإرهابيين و الفالقة و قطع الطرق عبر الإجراءات الردعية و القانونية التي بحوزة السلطة الفرنسية. فلم تكف الحكومة الفرنسية على مواجهة الوضع "الداخلي" بالقوة العسكرية و الأمنية و الإجراءات التعزيرية في مواجهة الجزائريين، و من التماس مبررات و اعتبارات السياسة الداخلية و السيادة الفرنسية في مواجهة الأمم المتحدة عندما بدأت تنظر في المسألة الجزائرية بداية من عام 1956.

<sup>3</sup> بقيت الدولة الفرنسية، حتى بعد استقلال الجزائر عام 1962، لا تعترف بأن ما جرى في الجزائر خلال حقبة الثورة التحريرية بأنه حرب، ليس فقط للاعتبارات التي كانت قائمة في ذلك الوقت، بل أيضا لاعتبار آخر هو عدم الإقرار بصفة محارب لكل من جند في تلك الحرب من الفرنسيين التي ترتب مستحقات، خاصة علاوة قدماء المحاربين. و لم يتم البث و الحسم في هذا الأمر إلا بعد مصادقة البرلمان الفرنسي على ما عرف بقانون حرب الجزائر عام 1999، أي بعد زوال ضغط الذاكرة الجماعية على أجيال من الفرنسيين، و بعد عناد من شاركوا في حرب الجزائر من الفرنسيين في مطالبهم.. بل زادوا على ذلك مع من عرفوا بالأقدام السوداء (الفرنسيين الذين ولدوا في الجزائر و نزحوا إلى فرنسا في أعقاب استقلال الجزائر عام

## تاريخ الثورة الجزائرية تاريخ معقد

تاريخ الثورة الجزائرية بشكل خاص و تاريخ الإستعمار الفرنسي في الجزائر بشكل عام تاريخ معقد و شائك، يحتاج إلى توجس و إلى حيطة و حذر، كما يتطلب دراية لمثاقته و مسالكه الوعرة. و الأمر كلّ يعزى إلى وضعه الاستثنائي غير العادي، لكنه في كافة الأحوال رتب أوضاعا لدى الطرفين الفرنسي و الجزائري يصعب تحطيتها بسهولة أو التغاضي عنها و لو نوع من التغاضي. الاستثناء دائما معقد ، و تزداد صعوبته لدى الباحث سواء أكان جزائريا أو فرنسيا أنه مضطر إلى الالتفات إلى وضع الجزائريين و هو يكتب عن المؤسسات الفرنسية، أو إلى الفرنسيين و هو يكتب عن حياة الجزائريين. فمحاولة كتابة المرحلة الإستعمارية بشكل عام و حقبة الثورة التحريرية بشكل خاص تدفع إلى صعوبة أكثر لوجود وضعيات متفاوتة و متباينة و مختلفة إذا لم نقل متناقضة بشكل صارخ ليس بسبب تعدد الاعتبارات الدينية من مسلمين و مسيحيين و يهود فحسب بل للتفاوت في المراكز الاجتماعية و السياسية و القانونية التي أفرزتها الممارسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر لأكثر من قرن .

فالتباين يشير إلى المعمّرين (الكولون) و هم مواطنين فرنسيين، حتى و لو كانوا من أصول وطنية مختلفة: مالطيين، إيطاليين، أسبان، برتغاليين، يسري عليهم قانون الدولة الفرنسية على أساس من الجنسية، و القليل من الجزائريين المسلمين الذين حصلوا على الجنسية الفرنسية، في أعقاب الحرب العالمية الأولى، بناءً على مرسوم 19 فيفري 1919 و بعده، لا يتمتعون بحق المواطنة بل مركزهم أقل من المواطنين ذوي الأصول الأوروبية ، و أقل من اليهود الأهالي الذين حازوا على الجنسية الجماعية عام 1780 بموجب مرسوم كرميه و صاروا فرنسيين لهم كامل حقوق المواطنة، لكن هذا المركز القانوني و الاجتماعي عمق الهوة بينهم و بين الأهالي المسلمين و رتب حالة من الامتعاظ لدى المسحيين (على مستوى الشعور الديني) و على مستوى مزاحمتهم للامتيازات و الصلاحيات التي جاؤوا من أجلها إلى الجزائر.

كل هذا التنوع الإثني و الديني و الاجتماعي، كان له أيضا تداعياته على المستوى السياسي في تبني المواقف و التوجهات، الأمر الذي يحتّم تباين واضح و بيّن في سرد الأحداث و روايتها لاحقا عندما يستعيد الواحد زمام أمره ليبدأ في تسجيل شهادته للفترة التي عاشها بلا رقيب و لا قيد على ضميره ولا على رأيه السياسي أو الفكري لأن كل شيء صار ينتمي إلى التاريخ، و مطلوب فقط استعادته و لو نوع من الاستعادة القريبة من الذات و عبرها بحيث يمكن قراءتها و فهمها موضوعيا. نريد أن نقول ذات المعنى بشكل آخر، أن كل شيء قابل للسرد و الحديث فيه و روايته على نحو أفضل يساهم في فهم الماضي و إضفاء المعقولية عليه لأنه كان ماضيا ناقصا في زمانه، بمعنى لم يفصح عن كامل ما في جعبته في حينه بالشفافية و العلنية و الصراحة التي يقتضيه الوضع بسبب الحالة الإستعمارية الاستثنائية. فقد كان يصعب على الواحد أن يدلي بما في جعبته أو يتكلم بالعفوية و الصدق و التلقائية للاعتبارات التي سبقت الإشارة إليها من تعقيد الوجود السكاني في الزمن الإستعماري الحاد و الخطير.

---

1962، عندما قدّموا مشروع قانون إلى البرلمان الفرنسي يقر و يعترف بأن ما قام به الإستعمار الفرنسي زمن الإمبراطورية الفرنسية في ما وراء البحار كان من الأعمال الإيجابية و النافعة التي تتطلب التقدير و الإعراف بالجميل(مشروع قانون 25 فيفري 2005).

و نأخذ حالة اليهود في الجزائر، أو يهود الجزائر و صلتهم بالذاكرة، سواء كانت شخصية أو جماعية. كان يهود الجزائر زمن الإحتلال مجموعة من الأهالي الجزائريين مثلهم مثل الأهالي المسلمين إلى غاية 1870 حيث صاروا يحملون الجنسية الفرنسية بموجب مرسوم كرميه Crémieux. كانوا يتعرفون على أنفسهم بأنهم يهود الجزائر بالهوية و الواقع و التاريخ و المصير أيضا. أما حصولهم الجماعي على الجنسية الفرنسية فزاد في إرباك مركزهم الإجماعي و النفسي حيال الفرنسيين كما حيال الجزائريين المسلمين. و على خلاف ذلك نجد أن صورتهم بعد استقلال الجزائر تظهرهم لدى الجيل الجديد من الجزائريين و كأنهم امتداد للكولون و أنهم جزء من الإحتلال الفرنسي، لذا جرى طردهم من الذاكرة الجزائرية و " ابعدوا " من الجزائر بعد الإستقلال بسبب فكرة الإستقلال و نشوئها الجديدة في حياة الشعب الجزائري و شعوب أفريقيا، و الذي حرم منها الفلسطينيين، بسبب الإحتلال "اليهودي" للأرض الفلسطينية. هكذا إذاً تواطأت الذاكرة الجماعية مع زيف التاريخ ليعيد قومية يهودية كانت قائمة و موجودة.

شهادة اليهودي الجزائري ، كما يقدمها عن الجزائر التي عاشها إلى الثورة التحريرية تختلف عن ما استقر عليه الوعي الجديد من الجزائريين لما بعد الإستقلال، و لعلّ شهادة وليام سبورتييس إحداهما الدالة على ما كان عليه يهود مدينة قسنطينة التي ولد و عاش فيها إلى ما بعد الإستقلال. في كتابه<sup>1</sup> الصادر مؤخرا و يتناول فيه عبر الحوار حياته و حياة عائلته و خاصة حياة أخيه المناضل الكبير لوسيان سبورتييس. يروي وليام سبورتييس حياته كمناضل جزائري مناهض الإستعمار، يساري معادي للرأسمالية البغيضة، مثله مثل الآلاف من المسلمين الجزائريين الذين جذبتهم الحركة الشيوعية و اليسارية إلى النضال السياسي و النقابي و الاجتماعي من أجل وضع حد للاستغلال و الحيف و الظلم الإستعماري. يتحدث بالأصالة عن نفسه، كرفيق درب للمناضل اليساريين على اختلاف أصولهم و مكانتهم القانونية و مراكزهم الاجتماعية<sup>2</sup>.

تعدد الذاكرة بتعدد الأشخاص الذين يرومون رواية الماضي أو كتابته. و أبرز ما يظهر التعدد و التباين و الإختلاف عند سرد و تقديم الشهادة حول أحداث ووقائع الماضي، و هو ماضي لا يريد أن يمضي بسبب عصريته، أي انتمائه إلى التاريخ المعاصر. إن الانتقال من زمن إلى آخر يتطلب عند استعادة الزمن الأول يقظة ضمير و وعي فائق يتفوق على الشطط و الخطأ و التزييف، و يسعى قدر ما توفره الذاكرة و كل الحياة النفسية و الفكرية للإنسان إلى التحلي بالصدق و الرصانة و العفوية السلسة التي لا تتكلف في إعادة صنع الحدث على خلاف ما وقع، لأن مجرد رواية الماضي حتى مع الحرص على الصدق فيه إعادة بناء و لو نوع من البناء، لكن هذه المرة إعادة بناء الحدث يكون محمودا لأن بين الذات و الماضي حقبة زمنية لا يمكن ردمها بل هي التي تؤكد أن الذي يجري الحديث عنه يقع فعلا في الماضي. رواية الحدث مثل حدث الثورة الجزائرية يقع لاحقا، أي اللاحق الذي يروم أن يفسر السابق و يتوقف عنده ليتذكره و يصفه و يدلي بشهادته حوله لعله يميظ اللثام عن بعض حقائقه، كل ذلك يحتاج إلى امتلاك لغة الرواية و سرد الحدث. مسألة اللغة، بالنسبة للجزائريين و الفرنسيين مسألة على قدر كبير من الأهمية، و تبدو و كأنها

<sup>1</sup> William Sportisse, le camp des oliviers, parcours d'un communiste algérien, entretiens avec Pierre-Jean Le Foll-luciani, El Ijtihad, Alger, 2013.

<sup>2</sup> هناك ببليوغرافيا كاملة لمؤلفات يهود الجزائر و عنهم أيضا ترسم صورة أخرى غير الذي استقر عليه وعي الجزائريين بعد الإستقلال. أنظر على وجه الخصوص أعمال الباحث و المؤرخ الفرنسي اليهودي الذي ولد في الجزائر، بن جامعة سطورا ، و هو أحد المراجع المعتمدة في دراسة تاريخ الجزائر المستعمرة.: Benjamin Stora, les trois exils juifs d'Algérie, Pluriel, Paris, 2006.

معركة متأخرة عن ثورة التحرير يجب إتمام الانتصار فيها ليعود التاريخ إلى أهله، و استحقيقه عن جدارة... لكن في هذا الموضوع، يبدو صراحة، أن الجزائريين أظهروا عجزا صارخا في محاولة امتلاك التاريخ على صعيد الذاكرة و على صعيد الكتابة<sup>1</sup> العلمية له.

اللغة الشامتة بالاستعمار و المنددة به جاءت في وقت لاحق على استقلال الجزائر، و ساهمت بقدر وافر في إعادة بناء الخطاب التاريخي للثورة الجزائرية و التاريخ الإستعماري برمته. فعند الوقوف على الخطاب النضالي في وجهه السياسي و الإيديولوجي الذي واجه به المناضلون الجزائريون السلطة الاستعمارية نجد معقولا بالنسبة للوضعية الثورية التي عاصرها و تفاعل معها لكسب قضية شرعية. فقد كان الخطاب النضالي يتحلّى باللغة السياسية و بالموضوعية التي تقتضيها حالة شعب يرغب و يلح على الإستقلال. لم يكن الخطاب الثوري مسلحا بالكراهية و لا الشماتة التي جاءت لاحقا في خطاب جبهة التحرير الوطني بعد الإستقلال، الذي لم يلبث إن اعتمد كخطاب رسمي يتدثر به حيال الشعب و يفترض أن المعركة مع العدو لا زالت دائما قائمة.

الحقيقة أن الآلاف من المجاهدين الذين ساهموا بهذا القدر أو ذاك في الثورة التحريرية الكبرى انتظروا طويلا لكي ينكبوا على سرد مجريات الثورة و كتابة مذكراتهم، و هذا ما ضيّع لحظات مهمة في مسار تاريخ الجزائر اللاحق على الثورة و الإستقلال. كما أن القليل من المجاهدين و من عايشوا الحدث تحدّثوا عن الثورة و تداعياتها عبر وسائل من الصحفيين و الكتاب الذين صاغوا مسيرة الكفاح الثوري بلغة لم تكن تفصح كثيرا عن خيال و تصور صاحب الشهادة. فقد كانت هناك مسافة من المعنى بين المتحدث و المتلقي الذي يكتب و يصوغ. علاوة على ذلك، فإن القدر الزهيد من المذكرات التي وصلت إلى المطابع كانت تعاني - خاصة المذكرات التي صدرت باللغة العربية - من الدقة و الخطاب الرصين و الصادق ، و هي مسألة موضوعية. فقد عانت الجزائر، على مستوى اللغة و التعبير مشكلة لغوية خطيرة مست هويتها الوطنية و القومية. عجزت المنظومة التربوية و التعليمية عن توفير لغة عربية جزائرية سلسة واضحة توصل الجزائريين على مستوى التعبير السياسي و الفكري بين بعضهم البعض و بين المجتمع و السلطة السياسية، حرم بسبب ذلك الشعب من أداة تواصل حيوية تفصح بوضوح عن مكامن الذات و خطابها الشخصي يقنع الآخر و يتفاعل به معه . طريقة رواية الثورة التحريرية لا يستشف منها التواصل الوجداني و النفسي و لا وضع الذات موضوع الامتحان عند تقديم الشهادة، على خلاف المذكرات التي صدرت من بعض الفرنسيين و من بعض الجزائريين الذين رووا مسيرة الثورة باللغة الفرنسية.

### الأنا المتكلم .. صعوبة تقديم الشهادة

رواية تاريخ الثورة التحريرية الجزائرية، واجهتها جملة من العوائق و الصعوبات، لا تعزى فقط إلى حالة التعقيد التي لازمت تاريخ الإستعمار الفرنسي في الجزائر فحسب، ولا إلى الضغط السياسي و الإيديولوجي الذي ساد عقود من الإستقلال الوطني سواء في الجزائر و إلى حد ما في فرنسا أيضا ، لا بل الأمر الصعب يعزى أيضا إلى الذات التي حاولت أن تتحدث عن تجربة المناضل

<sup>1</sup> أنظر نص مقال سعد الله بالقاسم حول الخوف من تدوين التاريخ عند الجزائريين في: أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ج1، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص. 43-50.

الجزائري لأحداث الثورة. فقد افتقرت هذه الذات إلى لغة الحديث و التعبير الذي يستوعب الحدث و الموقف و يتفاعل بصدق معه دونما افتئات أو اختزال أو تشويه أو تزييف. في الغالب لم تطاوع المناضل الجزائري اللغة التي عبّر بها عن مجريات الثورة سواء في جانبها العسكري أو السياسي أو حتى في الحياة اليومية بحيث يكشف فعلا حقيقة ما وقع . فرغم أن السرد و رواية الحياة الماضية يتم عبر الذاكرة المفعمة بالذاتية و الخيال إلا أن المذكرات جاءت في غالبيتها خالية من البعد الذاتي الذي يضفي خاصية التفرد و ما هو شخصي و خصوصي لصاحب الشهادة.

الحديث عن الماضي لا يتعلق بشخص واحد بقدر ما يتعلق بكل الذين عاصروا الثورة التحريرية كأفضل سبيل إلى معرفة ما جرى و كيف تم ذلك. إن الذات و هي تسرد الوقائع تكون على حالة من الإدراك و الوعي لا يضيع في زحمة الحاضر و ضغوطاته و لا أهواء النفس وطموحاتها المنفلتة، و تبدي قدرة على النأي عن الأغراض و الأطماع غير المستحقة، أي إعادة التصرف في التاريخ و هو ملك الأمة و ليس الأشخاص. و عليه، فإن عملية استعادة الماضي و استحضاره هو لصالح الأمة، يصب في الذاكرة الجماعية و بما يتعزز سند الدولة و المجتمع و حتى العالم. إن الوقوف على حقيقة ما وقع يضطلع به كل من عاصر و عاش تجربة الثورة التحريرية في كل زخمها و عنفها، و من تقاطع و التقاء و اختلاف الشهادات تظهر الحقائق، و منها يستعين الباحث في كتابة التاريخ و تحليله.

رواية تاريخ الثورة من الذاكرة مهمة صعبة و شاقة جدًا في الحالة الجزائرية كبلد يعاني التخلف التعليمي و اللغوي و الفكري، ناهيك عن التخلف الاقتصادي و الاجتماعي و السياسي، كل ذلك يؤثر في رواية حدث الثورة التحريرية. فقد نشطت ذاكرة المناضلين الجزائريين بشكل ملفت بعد الحرب الأهلية الجزائرية مطلع تسعينيات القرن الماضي و ظهر سيل من المذكرات تحاول بهذا القدر أو ذاك أن تستنجد بثورة التحرير ضد الإستعمار الفرنسي كملاد للتنصل و تبرئة الذمة مما حدث للجزائر طوال العقد الأخير من القرن العشرين و تداعياته إلى اليوم. كانت ثورة التحرير الجزائرية و لا تزال خطابا سياسيا للسلطة حيال الشعب تستر به على كافة الإخفاقات التي منيت بها في مجال البناء و التعمير و التنمية الاقتصادية، فضلا على الفساد السياسي و الاجتماعي. و نقصد من كل ذلك، إن وقت الحديث عن زمن الثورة ليس بريئا و لم يكن بدون قصد.

ظهرت في الآونة الأخيرة مجموعة من الشهادات دونت في كتب لمناضلين جزائريين شاركوا في الثورة التحريرية، حيث لا يظهر الأنا المتكلم بشكل جلي يقرب الموضوع من الذات أو تقترب الذات من الموضوع المراد روايته. في شهادته حول الثورة التحريرية، كما عاشها المجاهد عمر شيدخ العيدوني، يروي فيها وقائع الثورة في المنطقة الثانية، و يخص ناحية "أولاد عيدون" و دورها في هذه الثورة. في هذه الشهادة لا يتحدث المجاهد مباشرة بأناه الكاملة بقدر ما ييوح بتاريخ الثورة إلى من يكتب له، إلى كاتب صحفي. فالجاهد كما يذكر هو نفسه، مناضل بسيط، متابع لشأن الثورة و مساهم فيها على قد مستواه في التنظيم، يقول عن السياق الذي جعله يلتحق بمناضلي الحركة الوطنية من حزب انتصار الحريات الديمقراطية : " كنا نسكن في مشنة " عرفة " على بعد كيلومترين تقريبا من المدينة و كنت أراقب عن كتب نشاط المناضلين، و اقتربت أكثر من أعضاء حركة الانتصار، فأمنت بهم و اقتنعت بما يحملون من أفكار و تصوّرات لأنها كانت تعبر بصدق عن أحاسيس كانت تخالني، فلزمتهم و ازدادت ثقتي بهم، فنلت ثقتهم بدوري و أصبحت واحداً منهم، و بدأت أكتشف أشياء كثيرة عن تنظيمهم و طبيعة عملهم فازداد حي لهم و قناعتي بهم، و أكثر ما شدني إليهم أفكارهم السامية، و همهم العالية، و

نفوسهم الكبيرة، فقد كانوا مثالا للخلق الرفيع و السريرة الصافية، يعينون الضعيف و ينصرون المظلوم و يغيثون الملهوف من أبناء بلدهم البسطاء و لشد ما كانوا يكرهون الإستعمار و أدواته<sup>1</sup>. هذا ما كانت عليه حالة المجاهد شيدخ قبل الثورة، فهو من أنصار الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية التي منها انبثقت المجموعة النواة التي قررت التحضير و إعلان الثورة و تنفيذها. فحياة المجاهد هي حياة عادية جداً و شهادته تصدق على الآلاف من الذين ناضلوا في صفوف الحزب و شاركوا في الثورة. لكن محاولة استعادة وقائع الثورة و مجرياتها و سيرورتها هو الامتحان الصعب عندما يراد للجزائر أن تفترض استمرار الحرب على المستعمر، حتى و إن استقلت الجزائر عام 1962<sup>2</sup>.

الوعي بتاريخ ثورة التحرير يقتضي الحديث عنها كوضع لازم الجزائريين و الفرنسيين أيضا، لأن الحرب قامت أصلا بين الجزائريين و الفرنسيين، و من ثم فهي تندرج في ما يعرف بالتاريخ المشترك الذي يشترط الرؤى المتقاطعة على مستوى المقاربة و المنهج. لكن هذه الطريقة في التعامل مع التاريخ الفرنسي في الجزائر لا زالت، خاصة من الجهة الجزائرية، لم تستساغ بعد و مستبعدة من البحث العلمي و التاريخي.

على خلاف ذلك، نجد تجربة أخرى للمناضل محمد حربي، الذي كتب مذكراته<sup>3</sup>، و حاول منذ البداية أن يعصم نفسه من الزلل و طيش الهوى في رواية الأحداث من خلال الذات، لكي يمد أكثر التاريخ بما يمكن أن يفهم و يعقل و يقبل أيضا. هنا المقاربة في سرد التاريخ الذي عاصره صاحبه و يطلق عليه ب "أنا- تاريخ"، و هي المقاربة التي تنطلق من الذات لكي تروي وقائع الماضي كماضي لصاحبه أي هو الذي رواه لتصبح قصة تاريخية تعرف بصاحبها. و بداية من التمهيد لاذ المناضل و المؤرخ محمد حربي إلى تقديم الاعتبارات التي تستدعيها مغامرة سرد تجربة كفاح. فقد كان على وعي كبير بمسألة التزييف و التحريف في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية و الثورة التحريرية، كما أنه يدرك صعوبة رواية الحدث من طرف واحد أو من جهة رسمية و البطانة الإيديولوجية التي يمكن أن ترافق التاريخ بمعناه النبيل و الحرف الكبير.

الحقيقة، أنه لا تاريخ إلا من خلال الأشخاص الذين عاشوا الحدث و واقع الثورة و تفاعلوا مع نوازها و سياقاتها، ثم راحوا بعد حين من الدهر يحاولون استعادة اللحظة الماضية و استبطانها و البوح بما بالقدر الذي تكون مفهومة و واضحة لدى الأجيال التي جاءت من بعد لكي تتواصل مع التاريخ و لو نوع من التواصل. في مذكراته، الجزء الأول، المذكرات السياسية 1945-1962،

<sup>1</sup> عمر شيدخ العيوني، مملكة الفلاحة، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2011، ص.30.

<sup>2</sup> في تقديمه لكتاب " مملكة الفلاحة"، يقول الكاتب الإعلامي بلال بوجعدار، و الظاهر أنه هو الذي صاغ شهادة المجاهد عمر شيدخ : "مملكة الفلاحة"، رسالة رجل التفجير، إلى جيل البناء و التعمير، ليواصل المعركة بعزم و ثبات، فعُدو الأمس ما زال متربصا، و إن بدّل جلده و أسلوبه، و لن يغفر أبداً للأجيال الحاضرة و الآتية ما فعل به الأولون، فليأخذوا حذرهم و يحموا مكتسباتهم و ليعدوا ما استطاعوا من قوة فالجرب سجال و أبداً لن تنتهي"، ص.8. الإعتراض بوجود معركة مع عدو الأمس هو ضرب من افتراض الإستعمار و تعليق كل الإخفاقات التي منيت بها تجربة بناء مؤسسات الدولة الديمقراطية، و من ثم تعليق التحلف و الفساد المالي و العمراني و الإداري بالإستعمار. بعد خمسين سنة من الإستقلال مازال وهم الإستعمار يطارد حياة الجزائريين و يجبرهم على التعامل معه كحالة واقعة و اعتبار معركة التنمية الوطنية جزءا من الحرب على مستعمر الأمس الذي لم ينقض بعد !

<sup>3</sup> Mohammed Harbi, une vie debout, mémoires politiques 1945-1962, t.1, Casbah/Éditions, Alger, 2001.

يروي محمد حربي قصة حياته أثناء الثورة، عهد إلى زميله أندري أكون André Akoun أن يطارده بالأسئلة و يلاحقه بالنقد الذي يتحرى الصدق و الحقيقة و يلجم الذات عن الجنوح كثيرا إلى ملاحظة الذات النرجسية لكي يعود كل مرة إلى جادة الطريق و يعتصم بها إلى نهاية القصة. و الذي أعاد أيضا حربي في تحريّ الموضوعية و الكتابة السلسلة الملتزمة بقدر الإمكان حقيقة ما كان يدور في هذه الثورة، هي لغته الفرنسية، لغة أتقنت الحديث السياسي و الواقعي و الموضوعية في التعبير، بعد ما تم تجريد، خلال حقبة الحداثة، الكثير من الكلمات و صارت تحمل دلالات اصطلاحية حديثة و معاصرة و خلّصت من الحملات الإنشائية و البلاغية المفرطة.

يعترف حربي أن ما سيُقدم عليه من رواية ماضي ثورة التحرير ليس بالأمر الهين لأنه مناضل سابق و مثقف و رجل سياسي، فضلا على كونه باحث في التاريخ و معارض للسلطة منذ انقلاب جوان 1965. فقد أقدم على رواية قصة حياته ليس على سبيل الفرد بقدر ما حاول أن يساوق البيئة الاجتماعية و السياسية التي رافقها و تحكّمت فيه أيضا. فرد لا يبتعد عن الجماعة لأن الجماعة تحتاج إليه لحظة سرد الوقائع و شرح المواقف. و في هذا المدخل المؤطر لرواية التاريخ يتساءل الكاتب: لماذا هذه المذكرات ؟ " من خلال تجربتي، أريد أن أفهم الطريقة التي جرت فيها أحداثٌ مُهمّة جعلت الجزائر، ومنها بلدي في الجزائر، تنتقل من عالم تقليدي، تعيش حالة من التعقيد و واقعة تحت تأثير الحداثة، بحكم وجود الإستعمار، إلى جزائر دولة، لم تتعرّز بعد كأمة. يتعلق الأمر، في هذه المذكرات، بتسليط الضوء على مصائر، ليس انطلاقا من حياة خاصة، حتى و إن تمت بصيغة الضمير المتكلم، لكن بحياة الجماعة"<sup>1</sup>.

هناك حالة أخرى لرواية حرب التحرير من قبل بعض الجزائريين الذين شاركوا فيها كفرنسيين جنّدتهم الحكومة الفرنسية لإخماد الوضع و تسويته كما يحفظ النظام العام من القلاقل التي يمكن أن تنتاب الحياة العامة في البلد. فقد وجدت حالة الجزائريين الذي انخرطوا في مؤسسة الجيش الفرنسي و وصلت عليهم الثورة و هم في كنفه و شاركوا في بداية الأمر في تنفيذ إجراءات حفظ الأمن قبل أن تصبح ثورة نوفمبر عام 1956، بعد مؤتمر الصومام، مسألة حرب وطنية، سارع الجزائريون المجتدون تحت العلم الفرنسي إلى الهروب من الثكنات إلى جبال الكفاح و النضال. لكن الأمر لم يكن يتعلق بجميع من كانوا في الجيش الفرنسي، بل وجد فضيل آخر من الجزائريين الفرنسيين الذين كانوا يؤدون واجب الخدمة العسكرية كضريبة عادية للدولة الفرنسية، و وصلت عليهم ثورة التحرير و جنّدتهم الحكومة الفرنسية في عملية وضع حد للتمرد و الفوضى و عدم الإستقرار و ضرب على يد الخارجون عن القانون و الإرهابيين، و هي المفردات التي كانت تتداولها أجهزة السلطة الفرنسية العسكرية منها و الأمنية و الإعلامية.

الحقيقة، أن ذاكرة الجزائريين لم تنشط و لم تحاول استعادة حياة من كان في الجيش الفرنسي و لم تسرد تفاصيل ما كان يحدث لهم و ما يفكرون فيه و ما يتطلعون إليه في سياق الحرب التحريرية خاصة أولئك الذين واصلوا العمل في الجيش الفرنسي إلى آخر الإستقلال. لعلّ السيد يوسف خيضر لؤلؤ، أحد الذين شنّوا عن حالة الصمت و التكتّم الذي ضربه المجاهدون و المناضلون و

<sup>1</sup> Ibid. p.5, 6.

المجنودون في المؤسسة العسكرية الفرنسية على أنفسهم، و كتب مذكراته<sup>1</sup> و قدم شهادته في كل حالاتها حتى و هو ينفذ سياسة إخماد الوضع العام في الجزائر في صفوف الجيش الفرنسي. فكيف واجه الكاتب محاولة سرد الحدث التاريخي؟ السيد خيضر لولح، متعلم، و يمتلك اللغة الفرنسية، مناضل يساري، ثم صحفي إن في فرنسا و في الجزائر بعد الإستقلال. في شهادته، التي جاءت بضمير المتكلم، بعد ما حاول أن يبدأها بضمير الغائب و تيقن أنه يتعد عن التاريخ و لا يساعده (ضمير الغائب) على محاثة و مجاملة الفترة المراد التأريخ لها و إعادة امتلاكها و لو نوع من الامتلاك. الشهادة، يجب أن تقدم بضمير المتكلم، يقول المؤلف لأنه يفصح بتلقائية عن ذات المتكلم و يستحث وعيه بالكامل إذا ما رام الصدق. في شهادته على تاريخ الحرب التحريرية سواء طيلة الخدمة التي شارك فيها أو التي جاءت بعد الخدمة، نقف على ذات تتحرك بوعي و تتفاعل مع لحظة التاريخ في كافة جوانبها مع الصدق في الحديث مع الآخر أو مع الذات، أي التفكير الداخلي أو لحظات المناجاة والحديث الصامت.

أبدى المؤلف قدرة معتبرة في سرد الأحداث من خلال الذات و أعاد تشكيل حياته كما عاشها في صيغة رواية تاريخية بدون رومانسية التي قد تصنّف العمل ضمن الأعمال الخيالية. يقول المؤلف في مستهل "رجل من الشعب": "السرد، الوارد هنا، حقيقي، لم أرصع، لم أحرف كما لم أغير أو أتكتم. كل شيء واقعي و صحيح: الوقائع، الأسماء، التواريخ، الأماكن و النوادر. فقد تعيّن عليّ أن أخذ بعين الاعتبار ما هو مهم و أطرح جانبا كل ما لا طائل فيه، زائد و لا أهمية فيه"<sup>2</sup>. هذا ما يعترف به الكاتب المناضل في سرد الأحداث أي موضوع التاريخ، لكن لما يتعلق الأمر بحالة و وضعية سرد حياته الماضية فإنه أضطر إلى أن يغير و يعدّل من طريقة و عرض الشهادة، لأن فعل التذكر لا يتوفر مرة واحدة و بكيفية واحدة في كل لحظات العمر، لا بل يتغير و يتحوّل على حسب الوضعية<sup>3</sup> و حسب الوجود. رواية التاريخ و كتابته هي من التاريخ الراهن الذي يكاد يعدم الفواصل بين الموضوع و الذات لصالح التماهي بينهما. و الشاهد، ما يقول الكاتب نفسه: " ظهرت أول طبعة لهذه الشهادة عام 2009 في باريس و تلتها طبعة ثانية في شهر سبتمبر تحت عنوان: "مذكرات صغيرة، أن تكون من هنا و من هناك"<sup>4</sup> إشارة إلى فرنسا و الجزائر، ثم يضيف: " هذا الكتاب ليس نفس النسخة التي نشرت في فرنسا. فقد تعرض مضمون هذه النسخة الجزائرية إلى نظر جديد و إثراء و تحديث حتى يتجاوب قدر الإمكان مع رؤية و طريقة مقارنة الأحداث و الوقائع من الجانب الجزائري"<sup>5</sup>.

---

<sup>1</sup> Yousef Khider Louelh, un homme du peuple, de la Kabylie à Paris, Moscou et Bakou, parcours d'un militant progressiste, préf. Sadek Hadjeres, El Dar el Othmania, Alger, 2010.

<sup>2</sup> Ibid., p.5.

<sup>3</sup> الوضعية هنا بالمعنى الفلسفي الذي ساد سنوات الستينيات و السبعينيات من القرن الماضي و هي نزعة تربط الإنسان بالوضعية التي يوجد فيها يتحوّل و يتغير بناء على وضعيته و السياق الحياة الذي يوجد فيه. و نفس النزعة لها صلة بالوجودية التي توضع الإنسان في الوضع الذي يتحوّل فيه مصيره و عبء حياته بقدر الحالة التي يوجد فيها، و من هنا التحوّل و التبدّل الذي يطرأ على الإنسان، و منه صاحب مذكّرة " رجل من الشعب" الذي طالما غيّر من طريقة سرد روايته بناء على و وضعيته و وجوده.

<sup>4</sup> Mémoires minuscules, être d'ici et aussi de là-bas.

<sup>5</sup> Ibid., p. 6

الوعي بحقيقة ما حدث في الفترة التي امتدت ما بين 1954 و 1962، يستدعي إدراجه في المجال العام و التعامل معه كثقافة و نمط تفكير قابل للجدل و النقاش و الحوار و إعادة النظر أو إلى توكيد حقائق كانت ضائعة أو تفنيد أباطيل كانت سائدة. تحت هذا الإلحاح نحتاج إلى الواقعة في كل أبعادها الثلاثة كما يقال اليوم في عالم الإعلام، أي الصورة و النص و الصوت بقصد توفير المصدقية لشهادة معاصر الحدث عندما يعرف أنه ملزم برواية ما جرى بشكل علني، مباشر و ينتظر الرد و النقد و الدحض. و عليه إذأ، أن يتحشم القدر الممكن من الصدق و الالتزام بما وقع فعلا، مخافة الوقوع في التزييف و التشويه الذي يعطل الكتابة التاريخية للثورة التحريرية. و في هذا المضمار بالذات، نسجل غياب مفرغ و مروع للشريط الوثائقي كوسيلة لتوزيع الوعي التاريخي على المجتمع الجزائري<sup>1</sup>، خاصة لما ندرك القيمة الاجتماعية و الإعلامية و الثقافية التي صارت عليها الأفلام الوثائقية التي تتطلب تقنيات و استشارة تاريخية و دراية بطرق الإعداد و الإخراج، فضلا على التعليق و الحوار و النقاش الذي يعقبها بعد ذلك، و في الغالب ما تستقطب أعدادا كبيرة من المشاهدين و من المستمعين. قيمة و أهمية الشريط التاريخي في اللحظة التي تضم الكل ليشاهد و يستمع إلى الحصنة التاريخية و ما يساعد على تلاقي و تلاحم الوعي المشترك و الجمعي لما جرى في الجزائر و استعادة ذلك على مستوى الذاكرة و الكتابة التاريخية.

### انتصار على عدو مجهول

أغلب المذكرات و الشهادات التي قدمها أصحابها حول الثورة الجزائرية لا تحدد الخصم الذي رُفع في وجهه السلاح، و لا تظهر أنها تعرفه لكي تبرر لماذا انخرطت في الثورة و لاذت بالمقاومة المسلحة كسبيل لتحرير الوطن. فالعدو غائب في الذاكرة و لا ذكر له، و كأن الثورة قامت ضد مجهول بلا ملامح و لا تحديد يستدعي الثورة عليه. هناك حالة من التغاضي عن رؤية الخصم / العدو كما كان عليه في الواقع سواء كمؤسسة و أجهزة و أفراد و قوميات، ليس هناك وصف لحياة الناس و صلة المناضل الثوري بهم، كما لا يأتي على حياته قبل الثورة إلا لمما، و في الغالب يأتي ذكر ذلك في من رؤوا و كتبوا مذكراتهم باللغة الفرنسية. و يبقى، أن الحقيقة الغائبة في هذه الشهادات هي ما هو السبب أو الدافع إلى الالتحاق بالثورة؟

ما جاء على لسان و أقلام الجزائريين الذين حاولوا أن يؤرخوا للثورة لا ذكر لأسماء من الأجانب الذين جاءوا و تمتلكهم الرغبة الأسمى في إلحاق الهزيمة بالاستعمار و تحرير الإنسانية منه، كما لا تقف أيضا هذه المذكرات على المعارضين الفرنسيين الذين وقفوا ضد السلطة الإستعمارية و بلغ بهم الأمر إلى رفع السلاح و الانسحاق إلى تنظيمات و شبكات ثورية و تحريرية.

---

<sup>1</sup> غياب الشريط الوثائقي لتاريخ الثورة الجزائرية تعاني منه الجزائر كأمة و دولة و تاريخ، بينما الجانب الفرنسي يواكب دائما عبر الآلاف من الكتب و الأشرطة و الأفلام على عرض متوالي لا يتوقف للتاريخ الإستعماري و حرب الجزائر. لكن الحقيقة المرة في هذا الأمر أن القنوات الفرنسية تشاهد في الجزائر كامتداد للقنوات الوطنية، و من ثم فمشاهدة هذه الحصص يساير أكثر المعنى الفرنسي لتاريخ الإستعمار و لحرب الجزائر و يدرج كل ذلك في البيبليوغرافيا و الفيلموغرافيا التاريخية لفرنسا، الأمر الذي يزيد من تعقيد مسألة الوعي الجزائري بالتاريخ الحديث و المعاصر.

و في مقابل ذلك نجد حرصا على كشف الخصومات و النزاعات التي قطعت أوصال المناضلين داخل الصف الواحد<sup>1</sup> أو ضد التنظيم الآخر<sup>2</sup>. حقيقة، فقد تبين أن حاجزا فكريا و سياسيا و نفسيا يفصل بين المناضلين الجزائريين في أغلبيتهم و بين المؤسسات الفرنسية و الحياة الفرنسية التي كانت قائمة زمن الثورة و ما قبلها، و لعل أبرز أسباب غياب التواصل أو انعدامه هو عدم امتلاك اللغة الفرنسية و التفاوت الاجتماعي الذي كان يفصل بين سكان الريف و أهل المدن، و اختلاف المراكز القانونية بين السكان الجزائريين و الأوروبيين، بناء على الفروق في الحقوق السياسية و الحريات العامة ومستوى التعليمي و الثقافي و الوظيفي .

إذا كانت رواية الواقعة التاريخية تحتاج، كما سبق الإشارة، إلى قوة إدراك و إلى وعي بالذات و بالموضوع، فإن ما افتقده المناضل الجزائري زمن الإستعمار هو الوعي الثقافي و السياسي الذي يوسع به خياله و مداركه و ملكاته ليحتفظ بعد ذلك بالصورة و المشهد ، يستطيع أن يسرد شهادته في شكلها الأقرب إلى الصّح و إلى ما جرى فعلا. فقدان التواصل و مجاورة الآخر حرم أيضا المناضل الجزائري من إمكانية سرد مجريات الكفاح المسلح على أساس من خلفية الوجود الجزائري الفرنسي و لو ضداً على الآخر.. لكن الضد الذي يؤكد الأنا كذات فاعلة و يؤكد الآخر كطرف خصم يمكن تحديده و تجاوزه. و الذين كانت لهم القدرة على التواصل مع الفرنسيين هم الذين تصدروا المشهد السياسي و الدبلوماسي و الوجودي العام زمن الثورة و هم أيضا الذين استطاعوا رواية تاريخ الثورة التحريرية كفصل ثاني من صنع الثورة ذاتها<sup>3</sup>.

---

<sup>1</sup> نذكر على سبيل المثال اغتيال الشهيد عبّان رمضان من قبل أصدقائه المقربين إليه جدّا. و نشرت جريدة المجاهد، لسان حال جبهة التحرير الوطني في حينه صورة له بهذا العنوان " الشهيد عبّان رمضان يسقط في ساحة الشرف".

<sup>2</sup> نذكر في هذا الصدد الصراع المسلح بين أنصار مصالي الحاج في تنظيمهم الحزب "الحركة الوطنية الجزائرية" و التنظيم الثوري الجزائري المتأني من نفس التيار المصالي لما قبل الثورة، أي جبهة التحرير الوطني. و الأرقام تشير أن عدد الذين قتلوا من الجزائريين على يد الجزائريين أكثر مما قتل الجزائريون من الفرنسيين.

<sup>3</sup> يُغزى فضل الكفاح السياسي و الدبلوماسي و الإيديولوجي، فضلا عن الكفاح المسلح الذي أفضى في نهاية المطاف إلى مجموعة الجزائريين الذين كانت لهم القدرة على التواصل و الحديث و الحوار ثم التفاوض مع الإدارة الفرنسية باللغة التي تفهمها. فقد كانت مسألة التفاهم و التواصل متوقفة على قدرة المناضل الجزائري على إبداء الرأي و الاقتراح و المطلب بالقدر الذي يقتنع ب أو إقناع الآخر به. و لعلّ المثال الذي يمكن أن يساق في هذا الشأن، أن أول رئاسة للحكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية، عهدت إلى السيد فرحات عباس، المناضل السابق في حزب الإنحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، باعتباره شخصية متمرسة في التعامل مع الإدارة الإستعمارية، و يمتلك لغة فولتير، و لأنه المناضل السياسي المثقف الذي سبق له و أن وضع مشروع دستور الجمهورية الجزائرية عام 1948.